

أثر النكبة في الشعر الفلسطيني

بقلم
هلال ناجي

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ ـ ٢١ شباط ١٩٦٥
بغــداد

مطبعة العاني ـ بغداد



أثر النكبة في الشعر الفلسطيني

بقلم
هلال ناجي

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ ـ ٢١ شباط ١٩٦٥
بغـــداد

مطبعة العاني ـ بغداد

تعبير ادب النكبة واسع المدلول • فهو يشمل فيما يشمل كل ما كتب عن النكبة من قصص ومسرحيات وشعر ومقالات وأدب سيره ودراسات ادبية ونقد تقويمي لبعض ما تقدم • وكل فرع من فروع ادب النكبة هذه يصح ان يكون موضوعا لدراسة موسوعية وبحسب هذه المقالة ان تقف عند واحد من هذه الفروع واعني به شعر النكبة •

الدراسات الاكاديمية التي تناولت شعر النكبة لم تجاوز فيما أعلم الثلاث • كان اسبقها في الظهور كتاب الدكتور صالح الاشتر — في شعر النكبة — ١٨ صفحة — مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ نصفه دراسة ونصفه الاخر منتخبات من ديوان النكبة وهو في واقعه بحث تخطيطي في اصداء نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر فلم يقتصر الباحث فيما اختاره وما درسه على شعر — ابناء فلسطين — ثم تبعه محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والاردن — القاها الدكتور ناصر الدين الاسد على طلبه قسم الدراسات الادبية واللغوية في الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٠ وطبعت سنة ١٩٦١ • — ٣٢٩ ص — مطبعة لجنة البيان العربي — القاهرة — •

والمؤلف مصيب في قوله انها رسمت الخطوط العامة وبعض الخطوط التفصيلية لصور الحياة الشعرية في هذين البلدين • ثم تواضع الاستاذ المحاضر فقال « اما هذه الفصول فبحسبها ان تجمع المادة — او اكثرها — وان تدل عليها • وتعرف بها • هذه المحاضرات اذن عرضت للحياة الشعرية في فلسطين والاردن فلم يقتصر البحث فيها على شعر النكبة • ولكنها من زاوية النكبة وقفت عند حدود ما قاله ابناء فلسطين والاردن فيها ، دون غيرهم

من شعراء الوطن العربي الكبير • وتلته دراسة صديقنا الاســـتاذ كامل السوافيري وهي رسالة جامعية نال بها الماجستير من دار العلوم في القاهرة سنة ١٩٦٢ وقد نشرها بعنوان ـ الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من سنة ١٩١٧ ـ سنة ١٩٥٥ ـ ٦٥٠ صفحة ـ منشورات مكتبة النهضــة بالقاهرة ـ • ومن عنوانها يتضح ان الباحث لم يقتصر على ما كتبه ابنـاء فلسطين من شعر وانما مدّ جناحي بحثه على امتداد الوطن العربي الكبير • ولكن من زاوية الفترة الزمنية وقف عند بواكير عام ١٩٥٥ •

مما تقدم يتضح ان شعر النكبة الذي نشر في الفترة بين ١٩٦١-١٩٦٤ لم يدرس دراسة جامعة ويمكن ان تنعشب هذه الدراسة في جذمين كبيرين الاول ـ ماقاله ابناء فلسطين • والثاني ـ ما قاله اخوانهم من شعراء الوطن العربي الكبير •

سنحاول في هذه الكلمات التعريف بمـا تحت يدنا مـــن دواوين الفلسطينين الصادرة بعد عام ١٩٦٠ على ان يقتصر البحث على ما ضمتـه هذه الدواوين من شعر النكبة •

هــارون هاشم رشيد
في ديوانـه ـ أرض الثورات ـ

يقول عنه صالح الاشـتر انه « شاعر الامل العودة ، وفي شعره زاد وجداني حماسي يلهب جيل النكبة ، ويمنحه القوة والعزيمة والتفاؤل والاستعداد للجولة الثانية » • وفي هذا يلتقي الاشتر بناصرالدين الاسـد اذ يقول الاخير عن شعر شاعرنا انه « شعر الحياة والامل والقوة والدعوة الى الثأر والعودة » •

وان من يعرف الشاعر عن كثب معرفتنا الشخصية به يدرك ان الامل الذي لا ينطفىء في العودة هو قطب الرحى في شعره وحياته معا •

افتتح هارون ديوانه الرابع ـ ارض الثورات ـ بالابيات التالية : ـ

بدمي أكتب للاجيال أجيال العروبه
قصة الارض التي اعشقها اراضي السليبه
بدمي أكتب عنها •• عن لياليها الرهيبه
قصة لاهبة الاسطر شعواء غضوبه
قصة الارض التي تزهو باحداث عجيبه
قصة الثورات في **أرض فلسطين الحبيبه**

ثم اتبعها بقصيدة موشاة حمل الديوان اسمها •

ثم جاءت بعد ذلك الاناشيد الستة ، وتسع قصائد اخرى •

صحيح ان شعر هارون يتميز بالبساطة والعفوية لكنه في اناشـيده هذه يجره السرد التاريخي الى هوة النثرية والتقريرية • لقـد خـلت هذه الاناشيد من المعاناة الحقة وحفلت بالسرد التاريخي وبذلك خرجت عـن دائرة الشعر الجميل الذى عودنا اياه •

الشعراء المشردون شديدو التطلع والتحرق الى اي شيء يأتيهم من الارض السليبة • والطائر الذى يجوز فضاء الوطن السليب طالما هـز شاعرياتهم •

وشاعرنا هارون يمر بهذه التجربة ففي امسية من امسيات الصيف اندفع الى نافذته في غزة طائر قادم من الشمال من فلسطين السليبة .. كان الطائر جريحا وتساقطت قطرات من دمه على حديد الشباك . وتفجر النبع الحي من قلب الشاعر : ـ

حـــط عـــلى نافـــذتي طــــير جريح اخضـــر
دمـــاه مـــــن جناحـــــه علـــــى الحـــديد تقطر
مـــن الشـــــمال حيث اطياف الاماني تخطـــــر
وحيث احشـــــاء الصخور بالحــــــنين تزهـــــــر
حيث الربى .. تحكى الروايات ويشـــدو عنتـــــر
حيــث المـــــواويـل التـــــي يضوع منهـــا العنبـــر
مـن الشـمال .. مـن ذرى تاقت اليهـــا الانســـر
قـــد عشش البغي بهـــا وافـــرخ المستعمر
والليل فـــوق صدرهـــا ليل كئيب اغبـــــر
من الشمال .. حــط هـذا الطـــائر المغفـــر
الريـــح مـــن ورائـــه والعاصفـــات تـــزأر
والمـــوت . والليـــل الرهيب والاذى .. والعســـكر
مشـــرد .. مثلي .. ومثـــل والنـــدي .. محـــير
يا طـــائرا .. يزقـــو عـــلى نافذتـــي .. ويزفـــر
ويضـــرب الحديد مـــن آلامـــه وينقـــر
الليل مهمـــا امتـــد لا بـــد الغداة يقهـــر
وانت .. انت من جـــديد في الفضاء .. تصفـــر
وتمـــلأ الدنيا غنـــاء طـــائري .. وتســـحر
وتلتقـــي بالعش حـــيث لاباغ .. ولا مســـتهتر
وحيث تزقـــو الزغـــب في احضانه وتكبـــر
الفجر من جناحك الدامي غـــدا سيظهـــر
وفوق كل ارضنـــا نور الصباح ينشـــر

قلنا ان هارونا هو شاعر الامل في العودة • ولذلك نراه في كل شعره عميق الايمان بالعودة الى الارض السليبة : –

عيناه تبحثان في الفضاء
في التيه في مجاهل الشقاء
عن امسه الغارق في الدماء
عن ذكريات ومضها اباء
وهو يدب بادي العناء
يخطو وما في دربه ضياء
لانه مشرد بلا وطن

لكنه رغم الضياع يؤكد عزمه على العودة فينهي قصيدته بقوله :–

ولم في العباءة القديمه
احزانه الكثيرة الاليمه
مصمما مؤكدا تصميمه
ان يلتقي بارضه العظيمه
وان يدوس الدولة المزعومه
بالثأر والايمان والعزيمه

واجمل شعر الشاعر في رأيي هو شعره الموضوعي البعيد عن الخواطر المجردة ففية يتخذ من الحدث الخاص سبيلا للخوض في الحدث العام كما في قصيدته – مكتبتي – التي اجاب بها من سألته كتابا بعد عودته الى غزة اثر اندحار العدوان الثلاثي الآثم : –

آنستي عفوا •• آنستي ان شحت يوما مكتبتي
قد عدت •• فلم آنس فيها الا اكداس الاتربة
قد حطمت كل خزائنها بيد •• آثمة مجرمة
فتناثر ما فيها بددا من كتب الشعر القيمة
حتى مخطوطاتي احترقت حتى •• اوراق •• مفكرتي

ورسائلنا .. راحت بددا ضاعت في قلب العاصفة
كنا نتسامر .. في صمت ونذوب ... وراء العاصفة
والوحي هنا كم سامرني فالغرفة كانت ملهمتي
الغرفة ما تركوا منها .. غير الجدران المائلة
آنستي .. عفوا آنستي ان كنت جنحت .. بأخيلتي
ومضيت اردد اعذاري اعذارى .. غير مناسبة
مكتبتي سوف .. اجددها بعيون الشعر الرائعة
والكرسي الاخضر سيعود يعود لحضن الدالية
وتعود ليالينا القمراء نشيدا حلوا في شفتي
واعود .. ارتل اشعاري بالحب .. واشجي شاعرتي
آنستي عفوا آنستي ستعود سخاء مكتبتي

تحية لشاعر الامل الذي لا ينطفىء .

كلثوم مالك عرابي
في ديوانهـــا ـ مشردة ـ

في بيروت صيف هذا العام • اهدتني ديوانها حين قدمها الى الصديق الاديب يوسف الحوراني في مكتبه • وجرى بيننا حديث لا اذكر اطال ام قصر وانما اذكر جيدا اننا افترقنا وهي عازمة على السفر الى اسبانيا ، وا.. في نية تمضية الصيف على ضفاف البسفور •

يقول ناشر ديوانها انه « مجموعة قصـــائد تشهد بتأصل النزعـــة الرومانطيقية عند الشاعرة وتموج فيها الصور والاحاسيس معبرة عن الالم المغلف بالغربة والضياع » •

وفي رأينا ان اجمل شعر الديوان هو شعرها العاطفي الذاتي • ان القارىء يجد نفسه أمام شاعرة رومانسية مبدعه حين يقرأ قولها :ـ

الزهرة البيضاء بوحها شذى
والبحر امواج تبوح ، ترتمى ، تثور •••
والريح بوحها نشيج تارة وتارةعويل !
وانت ما بوحك يا غريب •• ؟

او حين يسمع همستها : ـ

عينا رفيقي زورق يغيب بي
في رحلة خمرية المذاق
اغرق في دنياهما واتعب
ولذة العنـــاء
ترعش بي احس بي
اغماءة • اغماءة • غيوم ••
مطر ، مطر
واســـتفيق

او حين ينصت الى قولها :

تحملني يداك تلفني تطير بي
احس انني اسامر النجوم
عصفورة آتية ، امتطي النسيم
وهمسك الربيع
وبســـمة انظمهـــا
اودعهـــا قصائدي المبعثرة .

لكن ما يهمنا هنا هو صدى النكبة في شعرها . فما هي صورة المأساة في شعرها ؟ لقد ضم ديوانها عدة قصائد من شعر النكبة هي سأم . لا يأس . اعوام . عودة . انا . نزاع . نواح . الخيمة .

خمس قصائد منها خليلية تلتزم اوزان الخليل وهي : لا يأس . عودة نزاع . انا . الخيمة وثلاث حرة هي : سأم . اعوام . نواح

الخطابية والنثرية هما آفة قصائدهـــا الخليلية . حين تقرأ قولهـــا (ص ٢١) : ـ

هم قيدوك بحكمهم احكام ظلم عاتيه
اذ طمأنوك بوعدهم وتراجعوا في ثانيه
انت المعذب في الورى فانفض قيودا باليه
واخلع رداء حاكه لك مستبد طاغيه

وحين تقرأ قولها (ص ٣٨) : ـ

وطني . نذرتك بلسما يشفى الجراح الداميه
وطني عهدتك منهلا يسقي الغروس الناميه
وطني شبابك ثائر تحدوه ذكرى قاسيه
ذكرى التشرد والأسى ذكرى الشجون الغافيه

* * *

ماذنب طفلي ها هنا يشكو المذلة والطوى
ما ذنب أمي ذنبها مرضت ولم تلق الدوا …

وحين تقرأ قولها (ص ٥١) : ـ

انا من انا يا اخي ها هنا ؟
انا ابنة جوع وعرى حقير ؟
انا ابنة هذي الخيام التي
تراها تئن بصمت القبـــور ؟
انا ابنة يوم رهيب أتــــى
ليلقي الخراب بربع نضـــير ؟
ويبعث رعبا ويلقــي الاسى
ويلقي الدماء ، دماء تفـــور

اقول : حين تقرأ قصائدها هذه تحس بانها تطفح بالخطابية والنثرية. وان نصيب الشعر فيها ضئيل للغاية . اما فلسطينياتها الحرة ، فعيبها الرئيسي انها تجارب مجهضة لم يتح لها الاختمار ابدا .

لنأخذ مثلا قصيدتها المعنونة ـ اعوام ـ

وتملأ الكؤوس في الدقائق المنهــارة الرنين
رنينهــــا المجروح الانين …
يغيب في مغاور السنين .
نحن في خيامنا نجاور الشقاء .
ونمقت الايام في انتقامها المشين
ونحتسى الخمرة نرشف اللذائذ القريبة المنال !
والغانيات تغزل الجمال !
برقصها المثير .
عباءة تميس كالدلال .
تلفها قصائد احتفال .
والعام تلو العام في حصيرتي ينام
كالافعوان عندما يعض في الظلام

شريدة انا في خيمتي .. حكايتي لم تدخل القصور .

حكاية يلوكها الغنى والفقـــير

مطلية مثخنة الجـــراح

عيب هذه القصيدة الرئيسي اضطراب الصورة الشعرية فاجزاؤها منافرة من الداخل وثمة تناقض خطير بين بعض صورها وبين الشعور العام المفروض تغلغله في التجربة .

دعنا نضع النقاط على الحروف ، ان الشاعرة تحاول ان تصور جو الشقاء في خيام النازحين . ذاك هـــو الشـــعور العام المفروض سيادته في التجربة . لكننا نجدها تقحم صورا تناقض هذا الشعور العام في قولها :ـ

ونحتسي الخمرة نرشف اللذائذ القريبة المنال

والغانيات تغزل الجمـال

برقصها المثير .....

ان هذا التناقض والاضطراب آفة من آفات شعر كلثوم

* * *

وبعد فان المجال لا يتسع لحديث اطول ولكنني اريد ان اهمس في اذن الشاعرة « ان قطعها المعنونة » فـلالى . مندلبوم . طـــين . أبـــي . تجذيف . طفولة . نشيد . هي قطع نثرية . نثرية لانعدام الموســـيقى الداخلية والخارجية فيها هي نثر مزركش منمق . لكنها لن تدخل حرم الشعر العربي ابدا .

ان انعدام النغم الداخلي والخارجي في التجربة الشعرية كمـــا في قصائدك النثرية هذه أزالت عنها صفة الشعر .

تحية لكلثوم عرابي الشاعرة الرومانسية .

علي هاشم رشـــيد
في ديوانـه اغـاني العــــــودة

في تموز من عام ١٩٦٠ وفي القاهرة بالذات قدم الي الشاعر الصديق علي هاشم رشيد ديوانه ـ اغاني العودة ـ موشحا اياه بالعبارة التالية : « مـع أمل اللقاء على الارض المقدسة في ظل الوحدة العربية الشاملة ، » ولقـد كانت هذه العبارة مفتاح كل قصائـد الديوان •

فالامل بالعودة والامل في الوحدة هما قطبا الرحى في ديوان اغاني العودة • والديوان في واقعه مجموعة اهازيج حماسية تتلظى بالثأر وتنزى بالحقد على الصهاينة وحلفائهم أو تطفح بالحنين الى ارض الوطن وبالامل الراسخ في العودة اليه ، والشاعر في غمرة حماسه الدافـق قليل الالتفات الى صنعته فهو لا يتخير الفاظه ولا يتأنى في احكام نسجه وتجويد صياغته وانتقاء صوره فيقع بالتالي في هوة النثرية •

سهر اللصوص ـ من طغمة المستعمرين ـ من كل افاك اثيم همـه المال الوفير ـ وتحته الكرسي الوثير ومشانق المستعمرين شـدت بأيدي الخائنين ـ ـ العابثين الماجنين ـ هم يسهرون ويمكرون ـ ويجمعـون ويطرحون ـ ويضربون ويقسمون ـ كيف التخلص من جموع اللاجئين•

ان النثرية تهبط بمستوى عدد قصائده • ويرى استاذنا السحرتي ان (عليا) في ديوانه « قد تحدث حديثا مطلقا بمعنى ان فكراته فيها كانت مجردة ولم يأت باحداث خاصة مفصلة » • وهذا صحيح مع استثناءآت قليلة تبدو في مثل قصائده « الامل الكبير • مجدى وماجد • رسالة من الكويت• الشريد • ونحوها • »

ان القصائـد الناجحة في الديوان هي التي استطاع الشاعر الحفاظ فيها على الوحدة العضوية للقصيدة عن طريق استخدام الاسلوب القصصـي في الغالب • وقد يكون موضوع اقصوصته الشعرية اسطوريا كما في قصيدته (الارض) التي حاول الشاعر فيها ان يبرز قيمة الحفاظ على الارض وقيمة

العمل باسلوب اسطوري •

حكوا بان سيدا مفضلا دعا بنيه ناصحا وقالا
لكم بني في التراب عندي كنز سيغنيكم لولد الولد
لكنني نسيت اذ دفنته في اي موضع ترى وضعته
في حقلكم هذا دفنت الكنزا وقد نسيت ما وضعت رمزا
فليأت كل منكم بفأس ليبلغ الكنز بجهد النفس
فاستبقو جميعهم للحقل وجعلو عاليه كالسفلي
فما رأو كنزا ولا حسوا به ورجعوا من بحثهم في وله
واذ رأى والدهم ما قد جرى احضر قمحا في التراب بذرا
ونزل ليسقى الزرعا ومنبتا حشائشا في المرعى
وحصدوا ما زرعوا بالأمس قمحا ودرساً فيه أيّ درس
وجاءهم ابوهم النصوح مبتسما بسره يبوح
وقال يا بني ان الجاني بنفسه ليس سوى الكسلان
وكنزكم لو كان مالا لذهب لكنها ارض ستأتي بالذهب

وقد يكون موضوع اقصوصته الشعرية حدثا واقعيا كما في قصائده المعنونة : الامل الكبير • رسالة من الكويت • الشريد • ومجدى وماجد •

يقول شاعرنا في قصيدة الامل الكبير •

في فجر اصباح جميل ـ عند الشروق ـ ومع ابتسامات الصباح ـ وعلى رفيف النسمة المعطار في سفح الجبل ـ هبت شجون ـ في الكوخ كوخ النازحين ـ من شط يافا ـ من رياض البرتقال ـ حيث الجمال ـ وتململت في الكوخ ام وابنتان ـ وفتى يصافحه الشباب ـ يدعى نزار ـ وشهادة الميلاد تنطق انه من غير دار ـ فالدار في يافا ويسكنها الخصوم ـ ولذا غدا سكناه في الكوخ الحقير ـ وبلا حصير ـ وأتى نزار المدرسة ـ وبخيمة سوداء من عبث الزمان ـ اصغى نزار ـ اصغى لاستاذ يقول ـ « ـ ويشير نحو خريطة فوق الجدار ـ هذا الوطن الحبيب ـ وتلك يافا قبلة الاحرار في الوطن الحبيب ـ وبها رياض البرتقال ـ وبها نعيم الذكريات ـ وبها الحياة ـ وتسائل الطلاب يا استاذ ـ حتام السكوت ـ ونرى

العـــدو بارضنا يجنـــي الثمـــار ـ ونعيش نحـــن مشردين ـ بالله هل هذي حياة أم ممات ـ وتبسم الاستاذ من هذا السؤال ـ وثم وقال ـ انتم اذا شئتم فانتم عائدون واذا عزمتم فالمرام غدا يكون ـ وارى تساؤلكم يبشر بالحياة •

ان الميزة الرئيسة في شعر (علي) هي الانسانية • فشاعرنا يثيره ما يرى من برم ام اليتيم النازح بطفلها فيخاطبها بهمس وحنان ورقة :ـ

ضميه للصدر ضمـــي فأنت رمز حيـــاته
وهدهديه برفـــق لا تضجري من شــكاته
غنيه لحنا حنونـــا يشـــع في جنباتـــه
لا تتركيه حزينـــا يـذوب في آهاتـــه
فأنت كـل رجائـــه

قضـى أبـــوه شهيدا في ســاحة للجهـــاد
لبي نداء شـــريفـــا نادى اليـــه المنـادى
وذلك الطفل منـــه بقيـــة مـــن فـــؤاد
ضميـــه واحنـــي عليـه غنيه لحـــن الرقـــاد
فذاك بـدر ســـمائه

هذا مـــلاك كريـــم يشـــع صدقا وطهـــرا
لا تتركيــه يقاســـي من بعد يسرك عسرا
بل أرقديه برفـــق وانشدي اللحن سحرا
عســـاه يغفو هنيئـــا ثم امكثي الليل سهرى
كـــي تسرعي لندائـــه

لا تسكبي الدمع حزنا امامـــه لا تنوحـــى
لا تـــسليه هنـــاء لا تضجـــرى بالجروح
فذاك يبني سمـــاء مـــن المنى كالصـــروح
لا تهـــدميهـــا بـدمـع او بالحديث الصريـــح
لا تعبثي في بنائـــه

وتتجلى نزعته الانسانية في وصفه ليتيم في العيد وهي من جياد قصائده نقتطف منها قوله :

ان يكن للشقاء نسل شقي ... فهو طفل الشقاء وهو جنينه
اين منه ابوه يهديه ثوبا ... قد رآه وجاذبته عيونه
هام في حالك الظلام شريداً ... ولطيف الرغيف هاج حنينه
ثورة في حشاه قد آلمته ... وصدى الجوع في الدماغ طنينه
ومضى يقطع الشوارع مضنى ... بالي الثوب راجيا من يعينه
ورأى مطعما يشع ضياء ... فيه من فاخر الطعام ثمينه
فرنا نحوه وحرك فاه ... دامع العين حيرته ظنونه
وأطال الوقوف بالباب حتى ... هب من بين جمعه من يهينه
فمضى هاربا يشق جموعا ... ليس فيها غير الشقاء قرينه
ادمت الارض راحتي قدميه ... وسداه الى الظلام يقينه
فطوى جسمه على الارض حتى ... من رآه يكاد لا يستبينه
وغفا حالما وجاء صباح ... تمشى على الانام شؤونه
واذا في الطريق جثمان طفل ... ساكن اضرم الفؤاد سكونه
قد مضى للسماء يبحث فيها ... عن اب راحم حنون يصونه

وتبدو نزعته الانسانية حتى في عرضه لمأساة وطنه الصغير وقومه المشردين • هو في عرضه لهذه المأساة يخاطب اخاه الانسان •• أيا كان واني كان ••

انا يا أخي الانسان مثلك كان لي وطن حبيب
قد كنت فيه اعيش في رغد وفي عيش رحيب

وقوله :

اتراك تعرف يا اخي الانسان ما معنى الضياع
اتراك تشعر ما اقاسي من شقاء والتياع
انا واثق من نبل حسك ان دعى للخير داع

وبمثل هذا النداء الطافح بالانسانية تتفرد فلسطينيات (علي) •
وقبل ان ننهي مطافنا في ديوان (اغاني العودة) لابد لنا من الوقوف

عند ياقوتة من يواقيته وهي قصيدته (نداء لاجئة) التي تكشف عن تطور في اسلوب الشاعر ونضوج في قدرته التصويرية • فهي في رأينا ذروة في الديوان :

تفتحت في قلبها الشجون ـ وهومت في نفسها الظنون ـ في ليلة مترورة كئيبة كآبة الضياء ـ في الشمع حول ميت ••• فقبر •• ـ تفتحت شجونها القريبة ـ وداعبت ظنونها البعيدة ـ وامتزجت في قلبها الصور وهومـت فكر •• ـ من واقع تعيشه أليم وذكريات كلها نعيم ـ وامتزج الذكر مع الشقاء مثل امتزاج الليل بالضياء ـ لكنما كآبة الظلال في المساء ـ قد اطلقت في نفسها الشجون ـ في قلبها الحنون ـ فأبصرت بانها تعيش لكنه العدم ـ فكوخها جدرانه صفيح ـ قد شفها البلا ـ فأصبحت وكلها ثقوب وخلفها يزمجر الاعصار وتهطل الأمطار ـ والكوخ لا تشع فيه نار ـ والأم ضمت ابنة وحيدة ـ يتيمة •• لاجئة •• شريدة ـ كأمها •• كشعبها •• طريدة ـ وها هو المساء ـ والليل يمحو آية الضياء ـ لكنما في نفسها رجاء ـ في روحها نداء ـ يا ايها الصباح ـ ارجع الينا آية الضياء •

تحية للشاعر الصديق

يوســـف الخطـيب
في ديوانه ـ واحـة الجحيم ـ

يمثل كل ديوان من دواوين الخطيب مرحلة من مراحل التطور في شعره فهو في ديوانه الاول (العيون الظماء للنور) يندد بالشعر الحديث وموسيقاه فيه صاخبة وشعر الديوان في اغلبه شعر محفلي جماهيري • في ديوانه الثاني ـ عائدون ـ نراه يغلف صوره الشعرية بغموض مرهـق للقارىء بل وتتعذر معه الرؤيا وكشف جوانب الصورة ومن ناحية اخرى نراه يخرج على موازين الخليل ويمارس كتابة التجارب الحرة • لكنه في ديوانه الثالث ـ واحة الجحيم ـ يجاوز ما تقدم بمراحل فهو يصرح : (بان القصيدة الحرة ليست الشكل النهائي امامنا للتجديد في الشعر العربي ان لم تكن الشكل الاقل شأنا في هذا المجال •

في « دمشق والزمن الردىء » حاولت ان أحرر الوحدة النغمية من حاجزين : اولا من اسار القافية التقليدي وثانيا من نشاز البتر في القصيدة الحرة • وفي المقاطع الموصولة من هذه القصيدة توخيت الدفق النغمي على اطلاقه حتى ليبلغ المقطع الواحد خمسين تفعيلة او يزيد بدلا من التفعيلات الست التقليديه المحبوكة الصدر والعجز وبدلا من اسطر القصيدة الحرة الممزقة الاطراف وقد اعتمدت التقفية الداخلية ضمن المقطع الواحد لتخليصه من عيب الرتابة •••) •

ان قدرة يوسف الخطيب لا تقف عند هذا الحد بل ترتفع الى مستوى خلق اوزان جديدة كما في البحر الذي سماه « الكرمل » حبا ووفاء لوطن الاحلام • قال يوسف : « الرجز » ووحدته مستفعلن • و « الرمل » ووحدته فاعلاتن « والهزج » ووحدته مفاعيلن • ثلاثة ابحر في عروض الخليل يمكن للشـــاعر الحـــديث ان يصهـره في عمـل واحـد •• ان تكــــرارنا لاية واحدة من هـذه التفعيـــلات الـثلاث بكـافة جوازاتهـا هـو في الوقـــت نفسـه تكـرار للتفعيـلتين الاخـرين بكـافة جوازاتهـما ايضا مع نقصان مرة واحدة في العدد •• فلو نحن كررنا « مستفعلن »

مثلا خمس مرات فمعنى ذلك بالضرورة اننا كررنا « فاعلاتن » اربع مرات و « مفاعيلن » اربع مرات •• ومعنى ذلك ايضا ان قصيدة موصوله التفعيلات نجريها على « الرجز » لابد ان تكون جارية في الوقت نفسه على كل من « الرمل » و « الهزج » •• الا اننا في المقطع الشعري الواحد نختار اول تفعيلة من البحر الذي نريد وآخر تفعيلة من البحر الذي نريد بينما يظل المقطع من داخله جياشا بتساوق نغمي من ثلاثة اوزان •• كما هو في « العرس السماوي » •• ربما لنقص في اطلاعي انني لم اعثر على شبيه لهذا اللون في تراثنا •• فالى ان يصححني النقاد فان هذا اللون من الشعر اسميه « الكرمل » •• حبا ووفاء لوطن الاحلام ••

الدكتور الاشتر يرى (ان الخطيب اشعر من غنى النكبة بعقيده قومية عربية اشتراكية) انه يريد ان يقول ان الخطيب اشعر من غنى النكبة من العقائديين ويبدو هذا الكلام على جانب كبير من الصحة اذا ما قرأنا رائعة يوسف (دمشق والزمن الرديء) • عشرون شاعرا مصريا ومثلهم وزيادة من شعراء الشام الكبير كانوا يتبارون في مهرجانهم الشعري في دمشق حين اطل فجر الانفصال الكالح • كلهم شاهدوا باعينهم جريمة الانفصال فما الذي خلفته في اثارهم •• لاشيء • اما الخطيب فقد كتب اروع قصائده (دمشق والزمن الرديء) التي عاناها في اعماقه عاما كاملا بكل ابعادها • وهذا هو الفرق بين شاعر عقائدي كيوسف الخطيب وبين دعي للعروبة كالشاعر صلاح عبدالصبور الذي شاهد جريمة الانفصال بنفسه فلم توح اليه شيئا • لان تجربة الوحدة ما عاشت يوما في اعماقه • ان من يعرف واقعة الاربعين شاعرا عربيا الذين حضروا جريمة الانفصال وكيف ادركهم العي لن يتسائل بعدها عن الشعر العربي وهل هو في مستوى النكبة ام لا ؟؟ ان الشعر العربي لم يكن ابدا في مستوى أية معركة من معاركنا على امتداد وطننا الكبير •

يضم ديوان « واحة الجحيم » ١٧ قصيدة وبضعة رباعيات • والديوان في مجموعه نموذج فذ لشعر الالتزام البعيد عن الخطابية والتقريرية

والوعظية • هو في محاولاته الحرة مبتكر اضاف جديدا الى الاشكال السابقة كما اوضحنا وقد تميزت قصائده الحرة بالوحدة العضوية وبالانفعال الصادق وبالتعبير الرائع بالصور •

وهو في شعره الخليلي المتناثر بين طيات الديوان شاعر انسان او مصور خلاق او مفكر عظيم • هو انسان في مثل قوله :

خل الرجاء مشرع الباب   وعد اللقاء غدا بأحبابي
شوق الطيور الى جداولها   شوقي لهم وحريق اعصابي
والدرب من يافا بلا رسل   سمرت فيه عمر اهدابي
ومنيتي تدنو فيرجئها   ذاك الرجاء ولمحه الخابي

وهو خالق صور في مثل قوله من قصيدته (من بحر يافا النسيم) :

وزائر لي من يافا بباقتي   أضمه برموش العين القاه
يفيء نافذتي يدري السبيل الى   قلبي •• أوسده قلبي وأرضاه
أسائل الله فيه ما يجنحني   بيارتا برتقال •• ام جناحاه
حتى يمسد اهدابي فاعرفه   انا الرفيقان من يافا وايـاه
يا زائري ووجيب القلب خطوته   ورفة الروح والذكرى هداياه
هل الدوالي على اكتاف منزلنا   هوى العصافير ام لا فيء تغشاه
وفاض بالضحكات النبع ام رجعت   جرارهن بلا ماء صبايـاه
وكيف اهل لنا في الدار أعينهم   مشدودة خلف وعد الصبح ترعاه ••
هل بعدنا بعد لا تزهو السفوح اما   ناي يبوح اما خلف الربى آه
نسيم يافا أمل رأسي الى سنة   احياك في حلم بستان وأحياه
وخلني لو شراعا فيك ضائعة   ايامه ومروج الوهم دنياه
علي اضمك في عيني ما طلعت   ليمونة في ثرى واخضل مغناه
ووافني كل يوم •• ما الزمان لنا   ولي سواك غدا طيف سألقاه

اذا اتيت مغيب الشمس نافذتي   ورابك الصمت لا دمع ولا آه
فضع على درجات الباب من وطني   هديتي •• لو يرد الحب قتلاه
ينوب عني لديك الطير ظلته   ستأوى وجيوب السقف مأواه
شباكي الراصد الغربي لفتته   شوق اليك وتلويح ذراعاه

وهو صادق الرؤيا في مثل قوله :

دربنا أضيق من فلع خلال الصخر   والزلزال •• درب الاقوياء
دربنا نهر اقاع فائر اللجة   بالرغوة •• درب الشهداء
دربنا تجربة الشيطان فوق الجبل   المنسي •• درب الانبياء

شعر الخطيب الحر ثمرة معاناة حقيقية مرة وهو يمتاز بانسانيته العميقة وبالصدق الاصيل في التعبير كما يمتاز بقدرته الخلاقة على التعبير عن كل ذلك بالصور • ان قصيدته (لو ميتا القاك) تمثل في رأينا نموذجا رائعا من شعره الحر تتوافر فيه الخصائص المتقدمة استمع اليه يقول :

أسأل عنك في الطيور يا حبيبي
في هجرة العطر على صبا الجنوب
في أمد انتظارنا وفي وجيبي
أسأل •• يا معذبي •• ويا حبيبي
لو ميتا يا وطني القاك •• لو أمشي
لك الدنيا على رمشين •• لو
آتيك في خاطرة •• لو هاجسا
أعبر في بال الربى •• لو
حفنة من الثرى هائمة على
جنون الريح عمرها وتنتهي
الى ثراك •• لا أناشد الوجود
غير ذاك •••
أن أشبع فيك ••
أن أراك •••••

لو ميتا يا حلم الاحلام •• لو دمـــا
يفيض في تويج وردة ••
لو برعما يطلع في الجليل ••
لو عبير برتقالة يشرد في
السفوح •• لو مويجة تمخضها
البحــــار في تعاقب الظلام
والنهار •• ثم تنتهي اليك ••
تنتهـــي ••
تمد ساعدا فوق ارتمـــاء
الذهب الرملي والمحار ••
لا أناشد الوجود غير ذاك ••
أن اشيع فيك ••
أن أراك •• أن أراك ••
أرخيك يا أعنة الحنين فاسبقي
الرياح والجنون والرؤى
اليه •• افديه هجيرة على الرمال
أو كث السفوح فيئـــا
وعانقي الفجر به على شواطىء
الندى وليله المضوا
ينزل أفياء الضلوع سيدى
متكئا على الرموش ما نأى

يقول (روزنتال) : (الطرافة في القصيدة ليست وحدها التي تحدد مدى اصالة الشاعر وانما تحددها كذلك قدرتهـا على الافادة من التراث الشعري) ويوسف في واحة الجحيم عظيم الافادة من تراثنا الشعري بشكل

نادر المثيل في شعرنا الحديث استمع اليه يقول :ـ

لو كنت من مازن لم يستبح وطني   بنو اللقيطة لكني من الشام
لو كنت من مازن هيهات لا جدث   يصغي فدع رمية التاريخ للرامي

واستمع اليه يقول :

اتذكرت جامع الرمل في يافا   وصيتا وفيئه البرتقال
في جبين المحراب من خير وشم   حكته النعال أثر النعال
أتذكرت...فاضطجع فيئة الذكرى   تفصد شعرا وذل سؤال
وابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ثم استمع الى قوله :

هذا جناه ابي علي وما   ارضعت الا ثمالة الالم

لتلمس لمس اليد مدى افادته من تراثنا الشعري العظيم :

المشكلة التي يعانيها قارىء (واحة الجحيم) هذه الضبابية التي تلف بعض صوره وقصائده فيصبح من المتعذر كشف جوانبها واستكناه صورها وينتهي القارىء الى تيه من الطلاسم يتعذر فهمها ومن امثلة ذلك قوله من قصيدة (العرس السماوي) :

وها كأسي الى دالية كالوهج
يسقاها صحاب الله
من منكم رأى جلبابه الماشي
فليسرج معي احضنة التوق
الى حانه
شدوهمو في الريح تأويد مزامير
الى العرس السماوي
وكالرؤيا
سهيل الخيل في برية الافلاك
ضاء العرش
كان الله باب الخلد في موعد

ومن امثلته أيضا قصيدته (المدينة السافلة) « وقطعته (والشعب) من

قصيدته (ثلاث قصائد للرفاق) نموذج آخر لهذا الاغراق في ضبابية الصور الذي يستحيل معه اهتداء القارىء لجوانب الصورة •

ويوسف كانسان عقائدي عظيم الايمان بالغد دائب البحث عن الفجر المرتقب » •

نحن يا يافا ارتقاب الصبح لا اجفّاننا
« تسهو ولا نلمح شيّـــا ••• »
كيف تأتيك ومن اين ؟ •• دعي نجواك
تهبط في دجى الغربة وحيا
ثم حانت لفتة أعلى فكان الله
في الظلمة مشكاة البشارة
دربنا •• من كوة الوطواط يمتد
على التاريخ •• من باب المغارة ••

وبعد « من الظلم الحديث عن ديوان متفرد كواحة الجحيم في مثـل هذه العجالة فمحال الكتابة عنه مديد •

وكلمة اخيرة ربما ذهبت عن البال اشياء كثار لكن ابياتا ليوسـف ستظل تدوى في اعماقي وفي اعماق كل قاريء عربي يقف عند هـــذا الديوان » •

وانا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الارض
لكنني بلا وطن
منـذا يصدقني
منـذا يصدقني

ايها الاخوة المشردون تحت كل نجمة : فلتوقدا الشموع •• ها قد نبغ فيكم الشاعر العظيم •• وغدا ••

« تـــرى
من يفلح التاريخ
من يعطي التشارين الاجنة
من يفي نيسان بالوعد الكبير » •

خـــاتمـة :

التزاما بالقاعدة التي ذكرناها في صدر البحث من اقتصاره على التعريف بشعر النكبة في دواوين الفلسطينيين الصادرة بعد عام ١٩٦٠ ·

فاننا لم نقف عند ديوان ـ اعطناحبا ـ للشاعرة الملهمة المبدعة فدوى طوقان · وعذرنا خلو الديوان المذكور من اصداء النكبة · انما لابد من الوقوف عند رائعة نشرتها فدوى بعنوان ـ فلسطينية اردنية في انكلترا ـ هي من رائع شعر النكبة لولا غلالة اليأس التي تلفها من فرع الى قدم · استمع اليها تقول مخاطبة احد الانكليز :

(١)

ـ : طقس كئيب

وسماؤنا ابدا ضبابية

من اين ؟ اسبانية ؟

ـ : كلا

انا من ·· من الاردن

ـ : عفوا من الاردن ؟ لا افهم

ـ : انا من روابي القدس

وطن السنى والشمس

ـ : يا · يا · عرفت · اذن يهودية

يا طعنة اهوت على كبدي

صماء وحشية

(٢)

تسأل عن سحابه

مرت على جبيني

وظلت عيني بالكآبه

وانت يا جار الرضى من فتح الجراح

ذكرتني

اني من الارض التي تمزقت

اني من القوم الذين

من الجذور اقتلعوا • من الجذور

واصبحوا على مدراج الرياح

مبعثرين ها هنا وها هنا • لا ينتمون

الى وطن

حقيقة فيها نغالط النفوس ندعي

انا كباقي الآخرين

قوم لنا وطن

* * *

لا لوم • كيف تعلم

هنا الضباب والدخان في بلادكم

يلفف الاشياء • يطمس الضياء

فلا ترى العيون غير ما

يراد للعيون ان ترى

وللسبب ذاته لم نقف عند ديوان ـ اللهب الكافر ـ لصديقنا الشاعر المجلجل محمود سليم الحوت لان الديوان في مجموعه باقة من شـــعر الوجدان والاسرة • فليس فيه من اصداء النكبة الا ظلالا باهتة تتجلى في مثل قوله : ـ

اين بالامس شـــاطىء لازوردي   وســـفح ومائـــج سندسي
وزواه كأنها قطع الخلد تناهـــى   بهـــا الجمـــال السـوى
وقرى تضحك العشيــــات فيها   مثلما يضحك الشـروق النــدى
والجنان المقدســــات ودنيـــا   من امان • وموطن يعربـــــي
وعروس يقبل البحـــر منهـــا   قدميها وسحرها الأزلـــــي
وشقيقاتها العذارى حيـــارى   اجدير بهـــا الهوان حـــرى ؟
ثم فليس الحياة يا صاح • خبـــزا   قد يموت الانسان والفـم حي

* * *

لا تسلني عن المرؤات جهـــرا   كان فينـــا من المرؤات شـــى
فاحتملنا الاذى افانـــين حتـــى   ظن ان الاذى هنـــي مـــرى
فاذا الكـــون كله بســـمات   ســـاخرات لهـــا بأذنـــي دوى

* * *

وتتجلى ايضا في مثل قوله : ـ

وهب شعب على صيحات صخرته   يستل من عذبات الله ممتشـــقا
وراح يضرمها حربا مقدســـــة   شرقية بضمير الغرب لن تثقـــا
كم حدثونا عن العدل المقيت وكـــم   كانت لهم حلبات الظلم مســـتبقا

لن نستقر ولن نهدا مراجلنا　　والحق في عالم الاطماع قد حتفا
سيعلمون وفي التاريخ موعظة　　كيف استمدوا من التقسيم متقا

* * *

ان الحوت شاعر عرف بديباجته الرفيعة الناصعة وبعاطفته الجياشة •
وانا لديوانه ـ صراخ الارض لمنتظرون •

هلال ناجي